حنين الناى (١)

للأستاذ على عبد العظيم
المدرس بمدرسة الأميرة فايزة الثانوية

« سمعت ألحانه العلوية تنساب فى حواشى الليل فوق سماء القرية فيممت شطره فاذا هو فلاح عارى الأطراف خلق الثياب ... فكان هذا الفنان الغنى فى فقره الوسيم فى دمامته . الموهوب فى جهالته هو الموحى إلى بهذه الأبيات ».

حقيقة هى ، لا من نسج أفكارى ... ياطيبها ليلة عدت بأعمار
طويتها فى ربوع الليل منسكبا ... مع الطبيعة فى سلسالها الجارى
فى قرية من ذرارى النيل قائمة ... كبغية الفن فى ملتف أشجار
سجا الظلام عليها فهى سابحة ... فى مائج من غواشى الليل هدار
وللنجوم وميض باهت غرقت ... أضواؤه تحت طامى اللج زخار
وللأزاهير أنفاس مهومة ... باح النسيم بها للجدول السارى
وللدوالى أهازيج ملحنة ... مصوغة من أغاريد وأسحار
والدوح يحلم والغدران ساجية ... والطير غافية فى كن أوكار

***

فى هذه الجلوة الفيحاء نبهنى ... من شاردات الأمانى صوت مزمار
تفيض ألحانه من روح مبتئس ... مشرد يتنزى تحت أطمار
الفن أغناه فى الدنيا ، وإن صفرت ... كفاه من درهم فيها ودينار
كسته عبقر من أفوافها حللا ... تبقى على الدهر ، فهو المكتسى العارى

(١) مهداة إلى أستاذنا الجليل محمد على مصطفى بك

فى هدأة الليل لم تهـدأ جوانحه إذا الهدو طوى أجفان أغرار
طافت به نشوات الفن هاتفة تمس أعصابه بالجـر والنار
فأطلق اللحن بعـد اللحن منتشيا ينساب تحت الدجى كالسلسل الجارى
أصغى له الليل مأخوذا بروعته وهب يرنو إليه الكوكب السارى
وأتلع التوت والصفصاف جيدهما وشـددت لحظها أبصار نوار
واهتزت الطـير فى الأركان لامسة من نشوة الفن منقارا بمنقار
كأنه من فراديس الجنـان سرى إلى الحيـاة بأنبـاء وأخبار

***

على الأثير سرى هيمان منتشيا كأنه ومضة من زندى الوارى
يشق كالضوء أجواز الفضاء فما ينفك يتبع تسيارا بتسـيار
يعلو فينصب فى الأسماع مصطفقا كما تقابل تيـار بتيار
ويستوى خافتـا حتى لتحسبه همس النسائم فى أسماع أزهار
وينتشى راقصا فى أفقه مرحا رقص الغصون على أمواج هدار
كأنه عاشق لج الهيام به فانساب يخبط أنجادا بأغوار

***

كم صـدحة فى حناياه مدوية مصوغة من أحاسيس وأفكار
يحلو بها الكون فى شتى مظاهره كالدهر يبدل أطوارا بأطوار
ففيه من كل لون لمح بارقة وفيه من كل هجس بعض آثار
إذا بكى ارفضت الألحان طافحة بصيب من سخين الدمع مدرار
وإن طغى ثرك الأكباد واجفـة كرهف فى يمين الدهر بتار
وإن شدا رددت ألحانه سنورا عن العناذل فى أضواء أقمار
لم تخل ألحانه من راقص هزج أو هائب وجل أو واثب ضارى

***

ما باله يعرض الأفكار سافرة ملموسة قيد أسماع وأبصار ؟
فقد يصورها فى زى يانعة من الخمائل تنمو فوق أنهار
يسرى النسيم على ألفافها خضلا معطرا بين أزهار وأثمار
ويصدح الطير فيها هاتفا مرحا كأن فى حلقه أوتار قيثار
وقد يصورها فى زى بادية مطموسة تحت سافى الترب مسوار
تستن فى قفرها الجنان صارخة تعج ما بين غواص وطيار
وتطلق الريح فيها كل عاصفة تصد فى الأفق إعصارا بإعصار

***

ورب لحن به فاحت فواغمه كغيضة بضفاف النيل معطار
يصافح القلب قبل السمع منسكبا مع الشعور سخينا فى الدم الجارى
كأنه من وراء اللون منبعث مسافر فوق آباد وأعصار
له حنان ندى الوقع مؤتلف أندى من الجو فى أعقاب أمطار
وومضة كنقاء القلب صافية أنقى من الطل فى أعطاف أزرار
ونفحة كفتيق المسك عاطرة أذكى من العرف فى ألفاف أزهار
وجلوة كمجالى العيد باسمة أبهى من العرس فى أحلام أبكار
دنيا من الفن لم تحفل جوانحها إلا بكل بديع الحسن سحار

***

أفديه لحنا من الفردوس منبعثا كروضة نسجتها كف آذار
فيه من الراح أكواب مشعشعة نقية لم تشب بالطين والقار
سليلة الضوء ما حلت بباطية من الزجاج ولا نيطت بخمار
تسرى القلوب على لألائها زمرا تحج ما بين طواف وزوار
روح من الملأ الأعلى تنزل من عليائه ليرينا قبدرة البارى

***

يا موقظ الليل من أعماق غفوته ... ماذا أثرت بقلب مدنف وارى ؟
نبهت بين ضلوعى واهيا قلقا ... يحيا على جرف من عيشه هارى
ألوى به الدهر حتى ذاب من كمد ... إلا بقية أحلام وأوطار
يا طالما هام بى فى الكون معتسفا ... محلقا بين أحداث وأخطار
ولج بى فى شعاب الدهر مقتحما ... سرائر الغيب فى عنف وإصرار
طفقت أسرى به حيران ملتهفا ... كأننى ذرة فى جوف إعصار
إذا الاصائل مستنى بطارقة ... زادت عليها غواشى الهم أسحارى
أبغى الهدوء ومن لى أن أفوز به ... وقد جرت بفنون النحس أقدارى؟

***

إنى - وإن كنت فى آلى وفى وطنى - ... لمستطار غريب الآل والدار
أعيش فى عالم من نسج أخيلتى ... خواطرى فيه أخدانى وسمارى
إذا حننت إلى الصهباء صافية ... فيه ترشفتها من فيض أشعارى
وإن صبوت إلى الجنات وارفة ... غرست أيكتها فى روض أفكارى
أنال فى الوهم ما أبغيه من أمل ... ولو تحجب منى خلف أسوار
حتى إذا انتبهت عيناى من سنتى ... وجدتنى بين أنياب وأظفار
كأن صوتى والأحداث تخنقه ... همس الضمائر فى أسماع فجار

***

يامرسلا نفسه فى الناى هائمة ... كالكوكب بسماء الفن سيار
بالله قل لى : لم استبدلت صادحة ... من اليراع بأخدان وسمار ؟
تبيت تشكو لها والناس فى سنة ... ما آدمتنك من وقر وأوزار
تصغى إليك فتروى كل ما امتزجت ... به حياتك من خصب وإقفار
كأنها مهجة فاضت مشاعرها ... برائع من بديع الفن مختار
هى الصديق بدنيا ليس يعمرها ... سوى قلوب من الإخلاص أصفار

تنسيك ألحانها لؤم الحياة وما تجرى به من حماقات وأكدار

* * *

ياصاحبي هات كأس الفن مترعة أحلى من الأرى فى أعواد مشتار
ورو نفسى بفيض من سلافتها تشدو له فى حنايا القلب أوتارى
وقف مع الدهر فى محراب صومعتى وأنصتا لأغاريدى وأسمارى
ورتلاها على سمع المنى سورا كما يرتل آيات الهدى قارى
وسطراها بألفاف القلوب فلم أهتف بها لتوارى بين أضبار
نظمتها فى فم الأيام أغنية ولم أصفها لتثوى بين أسفار
ياحبذا العيش لو ضمت جوانحه من البرية أشباهى وأنظارى

* * *

من علم الناس أحلامى فرتلها ومن أذاع له مكنون أسرارى ؟
ومن أسر إليه كل هاجسة دقت عن اللمح فى أعماق أغوارى؟
أيعلم الغيب أم يفضى إليه به ومض من الفكر لم يحجب بأستار؟
أم بات يرقب أفلاكى بمرصده أم راح يسبر أعماقى بمسبار؟
أم أنبأته يراعى بالذى علمت منى وألقت إليه كل أخبارى؟
لا بل أصاخ إلى قلبى فطارحه شجوا بشجو وتذكارا بتذكار

* * *

ماباله يرسل الألحان ساعرة كهارج من شواظ النار موار ؟
بها حنين إلى الماضى يلج به كما تحن كراوين لأوكار
لعله حن للأوطان مذكرا منابت الغاب فى شطآن أنهار
أم بات يروى عزيف الريح فى قصب من غابه أم يحاكى سجع أطيار
كأنه ساحر ألقى إليه من باحة الخلد داود بمزمار
أو شاعر لبق أهدى الربيع له طرائف الحسن من عون وأبكار

أو بسمة فى فم الأيام أو حلم من النعيم تهدى بعد إقتار

* * *

ياساهدا بفناء الليل معتكفا فى قدسه كرهابين وأحبار
تعال ننعم بما فى الفن من متع جلت مآثرها عن كل مقدار
تعال نبصر من الدنيا غضارتها ونقتطف من جناها خير أثمار
القلب ظمآن لايرويه من ظمأ إلا سلافة فن منك زخار
لاتخش من جانبي عجبا ولا صلفا فلست إلا أخى فى الفن أو جارى
الفن وحد قلبينا ولا عجب فالفن يربط أقطاراً بأقطار
وكم يؤلف أشتاتا مبعثرة وكم يقرب أمصارا لأمصار؟
وكم يخلد أرواحا محلقة وكم يواصل أعمارا بأعمار؟
الناس لولاه آلات مسخرة فى العيش أو نصب من صم أحجار

* * *

هى الفنون أطاحت كل طاغية عن عرشه وأذلت كل جبار
لها عيون وراء الغيب نافذة ليست ترد بحجاب وأستار
إذا خبت نارها فى الأمة انحدرت على شفير من الأخلاق منهار
وإن زكت فى حماها عز جانبها وأقصر الدهر عنها أى إقصار
وليس يصلح لاستصلاح مملكة غير امرىء نافع بالفن ضرار

* * *

ياهائما ليس يرضى بالثرى سكنا وليس يقنع فى الدنيا بمضمار
أرسلت نفسك فى الألحان هائمة تروى القلوب بعذب منك مدرار
تالله ما أنت فى الدنيا سوى ملك وإن تجليت فى أثواب أكار
فاصدح وغن ولا تحفل بطارقة من جاهل نزق أو شانىء زارى
ففى لماتك أوتار مقدسة يصغى لها الدهر فى زهو وإكبار

لو أنصفتك الليالى فى تصرفها لكنت ملء قلوب ملء أبصار
وكللتك بتيجان منسقة مضفورة من جنى الزهر والغار

«٥»

ياصاحبى دعك من إعنات سابلة قد دنسوا خلقهم باللؤم والعار
خالوا الفنون تهاويلا مزوقة فقابلوها بإزراء وإنكار
عاشوا عبيد الثرى فى زى آلهة وكم عبيد تردوا ثوب أحرار؟
أسرى البطون يكاد الحرص يسخمهم من كل مفترس أو كل ختار
يلوون ألسنة بالهجر ناطقة كأنها مدية فى كف جزار
لو أنهم تخذوا الجنات منقلبا لدنسوها بأوشاب وأقذار
دعهم يهيمون كالأنعام فى سنة فهم بفهم المعانى غير أجدار

«٥»

مابال كوكبنا الأرضي مرتكسا فى جاحم من شواظ الحقد موار
لاتطلع الشمس يوما فى جوانبه إلا على فلك بالنحس دوار
أجن أبناؤه أم أنهم مقتوا حضارة أسسوها منذ أعصار
عادوا إلى شرعة الغابات واتخذوا دستورها وتناسوا شرعة البارى
وأشعلوا بينهم للحرب جائحة لم ينج من شرها غاد ولا سارى
وسخروا العلم للتدمير فابتكروا صواعقا تلتظى بالصلب والنار
فى السماء أساطيل مدوية وفى الحضم رواس ذات تهدار
وفوق متن الثرى جن مسلسلة تدب كالهول فى هضب وأغوار
طاش الأنام فشبوها مدمرة قد لاتغادر منهم أى ديار

***

أين العقول تداوى كل جائحة من الشرور وتهدى كل غدار؟
أين الفنون تؤدى من رسائلها وحى السلام بهذا الكوكب الوارى؟
رحماك يارب إن لم تطف جذوتها فلا بقاء لفجار وأبرار!!!

على عبد العظيم
مدرس بالأزهر بالمنزلة الثانوية